قضايا القبس
٣٧
السبت 13 محرم 1430 هـ – 10 يناير 2009 – السنة 37 – العدد 12793

الحرب على غزة: حان وقت الحساب

كتب حسن شامي:

بانتظار ان ينتهي مخاض تنفيذ القرار الدولي رقم ١٨٦٠ بوقف الحرب الاسرائيلية على غزة، وحتى لا تضيع دروس هذه الحرب عمن يجب عليه استيعابها (والجميع هنا معني بالاستيعاب)، تبرز الى الواجهة وقائع مؤلمة وأخرى تدعو الى ما يتجاوز الوقفة النقدية إلى وضع النقاط على الحروف.

لم «تبخل» آلة الحرب الاسرائيلية في تقديم «وجبة يومية دسمة» للاعلام، على مدى اسبوعين من حربها الهمجية على القطاع: خزين عامر بصور الدمار والقتلى والجرحى، وخصوصا الصور الصارخة لطفل شهيد أو عائلة ثكلى، ومن المخازي انه مرت ايام من عمر المأساة انشغل العالم فيها بتعداد الضحايا، ليتحول الانسان الفلسطيني - مرة أخرى وتكرارا - الى مجرد رقم، وتتحول أملاكه ومؤسساته الى مجرد حجم مادي لا معنى له.. وهنا ليس الحق على الاعلام او «الآخرين»، بقدر ما هو على من دفع بغزة الى أتون الاجرام الاسرائيلي، وكأننا بحاجة الى اختبار همجية الدولة العبرية وسياساتها التدميرية بحق الفلسطينيين.

المعنيون بالاتهام هنا، هم الذين آثروا أن يخوضوا حروبهم الخاصة، بأجساد الغزاويين، وان يستخدموا «أداتهم» الفلسطينية - حماس - في المواجهة، لكنهم خاضوا حروبهم لتصفية حسابات قديمة، أو فتح أخرى جديدة.. هكذا وجدنا مصر هدفا أول. والاعتدال العربي هدفا آخر. وكل دعوة الى التعقل هدفا ثالثا.. الخ.

لقد كان لافتا أنه وطوال الاسبوعين الماضيين، كانت لغة التهييج التي اعتمدها اصحاب مثل هذه الحروب، تعتمد مفرادت منتقاة، تتراوح بين اقصى عبارات التهجم والهجوم والتخوين، وأكثر المواقف هدوءا في ما خص الادوار «المرتقبة» من الاسهام في نصرة أهل غزة وحركة حماس.. والامثلة على ذلك جاءت واضحة من دون حاجة الى البحث عنها: ايران حرمت وبفتوى صريحة من مرشد ثورتها مشاركة الايرانيين في الحرب، حزب الله حرص على استغلال كل فرصة ليؤكد عدم نيته تحريك جهة الجنوب اللبناني ضد اسرائيل، وسارع عند اكتشاف صواريخ الكاتيوشا هناك قبل اسبوعين ومن ثم اطلاقها قبل يومين، الى تأكيد عدم مسؤوليته أو علمه بذلك. أما سوريا التي شاركت في الحملة على مصر بـ«عيار» مخفف وانتقدت التحرك العربي باتجاه الأمم المتحدة، فكانت تتحدث عن السلام المفقود بعد توقف محادثاتها غير المباشرة مع اسرائيل.

وظيفة القرار ١٨٦٠

في ضوء هذا الواقع، واقع ان اسرائيل كانت تخوض حربها مباشرة ضد قطاع غزة، فيما الآخرون يخوضوون حروبهم الخاصة خارج القطاع، كيف سيجري توظيف قرار وقف اطلاق النار وفتح المعابر الذي صدر عن مجلس الامن الدولي حاملا الرقم ١٨٦٠، والأمل بإنهاء مأساة اهل قطاع غزة بعد اسبوعين من الحرب الهمجية الاسرائيلية عليهم؟ قد لا يعدم كل طرف الحجة في شد القرار الى منطقة، واعتباره في هذا الجزء او ذاك من حيثياته انتصارا لموقفه، يستوي في ذلك المحاربون على الارض (اسرائيل وحماس)، والمحاربون في الخارج (العرب الذين سعوا في استصدار القرار الدولي، ودول الغرب التي احرجها ألا تفعل شيئا لوقف مسلسل قتل المدنيين، خصوصا الاطفال والمسنين منهم).

ما بعد القرار ١٨٦٠

المسألة ليست بهذه البساطة بحيث يتحول القرار رقم ١٨٦٠ الى مجرد أداة تجاذب دعائي يظهر معه الجميع منتصرين، فيما الحرب على غزة شنتها اسرائيل لهدف واضح ومضت في تنفيذه بغطاء دولي لا لبس فيه.. وعليه، بات المطلوب ان نتحدث بلغة اولى مفرداتها تفيد بأن وضع قطاع غزة ما بعد القرار ١٨٦٠ لن يعود الى ما قبله. ذلك ان الحرب الاسرائيلية على غزة اذا توقفت اليوم لا يمكن وصفها بالفاشلة، اذا ما قيست بحرب صيف ٢٠٠٦ على لبنان، بل ان مسار الحرب الاخيرة يشي بأن القيادة العسكرية في اسرائيل، كما السياسية، استوعبت الى حد بعيد دروس ٢٠٠٦، ومضت في حربها على غزة بخطى واثقة، ومن دون عثرات تذكر، ومثل هذا الكلام يقال ليس اعجابا بآلية التدمير المنفلت من اي مقياس، التي تتمتع بها قوة جيش الاحتلال، بل اقرار بحقيقة لا يجوز اغفالها، وبالتالي، فالمسألة اليوم باتت كالتالي: ستحاول اسرائيل «شد» القرار الدولي ١٨٦٠ باتجاه تنفيذ على الارض، يقيد النشاط العسكري لحماس ويمنع صواريخها ويحجم دورها السياسي، وينظم حركة المعابر وفقا لاتفاق ٢٠٠٥ الدولي (بإدارة السلطة الوطنية الفلسطينية واشراف اللجنة الرباعية الدولية وبرقابة مصرية..)، وقد كانت تل ابيب واضحة منذ البداية في هذا الاتجاه. فقد حددت القيادة الإسرائيلية المعنية مباشرة بإدارة الحرب على غزة (رئيس الوزراء ايهود أولمرت، وزيرة الخارجية تسيبي ليفني ووزير الدفاع ايهود باراك)، قرارها بالسعي إلى انهاء الحرب بحل سياسي «يتشكل من اتفاقات إقليمية ودولية لا تكون حماس طرفاً فيها، خلافاً لاتفاق التهدئة الذي تم التوصل إليه بين حماس وإسرائيل في مفاوضات غير مباشرة بوساطة مصرية»، كما نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية في عددها الصادر يوم الأحد الماضي ٥-١-٢٠٠٩.

خيارات حماس

هل حماس في وارد القبول بالخروج من المواجهة من دون مكاسب تستطيع القول انها حققتها؟

في القيادة الإسرائيلية ثمة تقدير بأن الحركة الإسلامية «فهمت»، وان متأخرة، ان خرقها للهدنة كان خطأً استراتيجياً. بل ان في هذه القيادة من يرى ان حماس تركت وحيدة في المعركة، اذ تخلت عنها سوريا وإيران، ولم يسارع حزب الله إلى تجهيز صواريخه للدفاع عنها، لكن مثل هذا الكلام «الانتصاري» لا يمكن التعويل عليه للإقرار بواقع لا رجوع عنه. ذلك ان حماس ستسعى بكل ما تبقى لها من إمكانات لاقتناص مكاسب من المواجهة التي خاضتها، بعد ان استطاعت – وبفضل الاعلام والمواقف المختلفة – تقديم الجانب الإنساني لمأساة غزة في مواجهة الحرب.. انما هل سيكلل مسعاها هذا بالنجاح؟ الجواب منوط بالمسار الذي سيسلكه تطبيق القرار ١٨٦٠ على الأرض.

المرجح انه، وبغض النظر عن المنطق الانتصاري الإسرائيلي، فإن تل أبيب لن تتردد في تثمير «إنجازها» العسكري والدعم السياسي الدولي لها، من أجل أن يكون مسار التنفيذ في اتجاه يحقق هدف حربها الأخيرة.

أما الذين خاضوا حروبهم الخاصة، رافعين اسم غزة وشعارات «العزة» فسيكون عليهم إجراء الحسابات الدقيقة بين ما خططوا له في «حقل» الدفع بحماس إلى المواجهة وما جنوه على «بيدر» نتائج الحرب الأخيرة.. وهي لا تقتصر على المآسي الإنسانية والدمار والخرائب الموقعة بيد الإجرام الإسرائيلي.

انه وقت الحسابات الدقيقة بامتياز، لأن النتائج لن تتأخر في الصدور.

من يكبل يدي المرشد الأعلى؟

بقلم الجنرال وفيق السامرائي:

نقل عن المرشد الإيراني الأعلى منعه سفر متطوعين إيرانيين للقتال الى جانب الفلسطينيين في غزة، بدعوى أن إيران مكبلة اليدين، فيما قيل انه ظهر باكيا على شاشات التلفزيون لما يجري في تلك الحرب الدامية. كما سبق أن تمنى قائد الباسداران وجود سفارة أميركية في طهران ليقوم هو ومقاتلوه باحتلالها، ولم يخف قائد آخر في وقت سابق تسليح إيران جيوش الحرية في العالم.

فيما تقف إيران متفرجة، تظهر التناقضات حادة بين الفعل والعمل، أو هكذا تسقط الأقنعة عن نوايا التسلح الإيراني الضخم، ويتضح المستهدف به، وبات على المخدوعين والمغفلين من العرب الإفاقة من سباتهم وغلفتهم.

دعم غير نزيه

بصرف النظر عن موقف حماس أو أي منظمة أخرى، لها ظروفها الخاصة، فإن الدعم الإيراني لكل الحركات المسلحة لم يكن مبنيا على أسس إنسانية أو فكر ومعتقد ديني، بل بني على أسس مصالح إيران وأهدافها ومشاريعها المثيرة لقلق العالم والمنطقة، والمتمثلة في ثلاث نقاط، هي: برنامجها النووي، والتوسعين الأفقي والنوعي في عمليات التسلح، خصوصا الصواريخ البعيدة المدى، وثالثة النقاط التدخلات السافرة في العالم العربي. وأن يقوم طرف ما، بدعم طرف للتصدي لطرف ثالث، لا يعني بالضرورة دعما مخلصا ونزيها، بل لتحقيق هدف يدخل ضمن مفهوم القتال بالإنابة، وهنا لا يمكن اتهام حماس بقتال الإنابة، لأن لها أهدافها الخاصة، وقد تكون مضطرة الى ما آلت إليه الأمور من علاقات مع إيران شكلت هاجسا عربيا مثيرا للقلق.

يدان مكبلتان!

تمتلك إيران قوة صاروخية ضخمة، حسبما تعلن، وقد جربتها علنا، أصبحت مدعاة لغرورها، كما ادعت أنها صنعت طائرات بعيدة المدى يمكنها تفادي الكشف الراداري، وهددت مرارا برد ساحق على إسرائيل إذا ما هاجمت مواقعها، ولم تستثن دول الخليج العربي من تهديداتها الحماسية وغلق مضيق هرمز، وضرب وإغراق السفن..الخ، فما الذي كبل يديها؟ وفي وسعها مثلا رشق إسرائيل بصواريخ شهاب وسجيل، أو شن غارات بطائراتها الخفية (التي لا وجود لها)، أو التلويح بهما، لو كانت صادقة في ما تقول. وهذه ليست دعوة لها للقيام بذلك، لأن المنطقة بحاجة للتهدئة لا التثوير، والعرب ليسوا في حاجة الى ضربات تكسب إيران دعاية على حسابهم، وحتى ولو كانت نزيهة. وعلى سبيل النقاش، فإن أي رد فعل إسرائيلي على ضربات إيرانية سيأخذ طابعا مماثلا تكون فيه القوات الإيرانية في أعلى درجات الاستعداد، وتكون تأثيراته ضمن حدود التوقعات، لا تساوي شيئا مقابل مغامرة (فاشلة) لغلق مضيق هرمز.

متطوعون للدعاية

الكل يعلم أن غزة محاصرة من كل الاتجاهات ويستحيل وصول المتطوعين اليها، والجنوب اللبناني غير مسموح العمل منه، ليس بسبب وجود القوات الدولية فقط، بل بموجب قرار لبناني، بما في ذلك «حزب الله». فما مبرر استقبال المرشد الأعلى للمتطوعين او التحدث إليهم، إذا كانت الحال كذلك؟ لا شك في أنها عملية دعائية يراد بها إلقاء اللوم بشكل أو آخر على الدول العربية، لعدم فتح حدودها، ولعدم خوضها حروبا جديدة، لأن لا شيء يخدم السياسات الإيرانية حاليا غير إثارة الاضطراب في الدول العربية تحديدا، والمنطقة عموما، وإثارة الصراعات الدولية، فكلما تفجرت بقع وحصلت توترات مضافة كف العالم عن متابعة البرامج الإيرانية. وهو ما تسعى إليه إيران من خلال استهدافها مصر أولا بمختلف الوسائل الدعائية والسرية.

قطع النفط

من المطالب الإيرانية، أن تقوم الدول العربية بوقف تصدير النفط، طبعا لغرض إحداث ضغط دولي على إسرائيل لوقف الحرب، وهو مطلب دعائي وزائف، إضافة الى تخطيط مريب، لعدة أسباب منها:

* بعيدا عن العواطف ومشاعر الألم، ان هدف إيران استمرار حرب غزة الى أقصى فترة زمنية، عسى أن تتمخض عنها مواقف واضطرابات تخدم أهدافها، وليس وقفها، لذلك يظهر الجانب الدعائي واضحا حتى لعموم الناس.

* النفط سلعة عالمية يتضرر بقطعها العالم أجمع، وفي المقدمة منهم الفقراء، ولا تجوز معاقبة الناس بهذا الشكل، كما أن الدول العربية في أمس الحاجة لدولارات النفط لمواجهة الأزمة المالية، التي وصلت الى جزئيات حياة اقتصاداتها.

* قطع النفط يثير اضطرابا، ويجعل الدول الغربية تعيد النظر في علاقاتها مع الدول العربية، وهو هدف استراتيجي إيراني، يراد به إضعاف الموقف العربي. أما علاقاتها هي، فكما يقول المثل «المفلس في القافلة أمين». وحسنا فعل العرب في تجاهل الدعوة الإيرانية.

* ربما هناك من يقول انها فرصة لإعادة ارتفاع كبير في أسعار النفط، وواقع الحال يشير الى أن الارتفاعات الكبيرة في سعر النفط تعمق الأزمة المالية العالمية، لم تنج منها البلاد المصدرة للنفط، وأي ارتفاع لن يكون طويل الأمد.

غدر ونوايا

هكذا يبدو الغدر واضحا، غدر في الإغواء وغدر في التخلي، غدر في الظهور بمظهر الحليف القوي الأمين والتخلي في زمن الأزمات، وغدر في وضوح النوايا وهذا درس كبير وحاسم للعرب والمنطقة ينبغي الوصول منه الى استنتاجات تؤكد التصورات المسبقة لكل من سلط الضوء على المواقف الإيرانية المريبة، ومن هذه الاستنتاجات التي تحولت الى حقائق ثابتة:

* للسياسة الإيرانية أهدافها القومية المباشرة، وهي لا تنطلق من أي معتقدات من معادلات السماء ونزاهة العلاقات، لذلك لا ينبغي التعويل عليها صديقاً وحليفاً في زمن الأزمات.

* عمليات التسلح الإيراني موجهة بشكل رئيسي (وربما كليا) لتحقيق أهداف إيرانية مباشرة على حساب دول الجوار، خصوصا الجوار العربي، لذلك لم يعد مبررا عدم أخذ المخاطر على محمل الجد، ومن الضروري مشاركة الدول العربية في اجتماعات دول ٥ + ألمانيا، لدراسة الملفات الإيرانية عموما، والنووية تحديدا، وفقا للدعوة الموجهة اليها.

* على المنظمات والأحزاب العربية ووسائل الإعلام، أن تضع نصب أعينها أن العلاقات العميقة مع إيران تثير قلقا مشروعا لدى الدول العربية والغربية، فيما تكمن مصالحها ضمن المحيط العربي والدولي المواجه للسياسات التوسعية الإيرانية.

ولا يذهب بعيدا من يقول إن ما حصل في غزة فرصة ثمينة لمخططي السياسة الإيرانية ليقولوا لأميركا وإسرائيل: ألم نثبت لكما أن سلاحنا ليس ضدكما؟ فتعالوا نتصالح مصالحة وفق مصالح نجعلها مشتركة. لكنهم سيفشلون، لأن المحيط العربي والخليج أهم من مناورات وأبقى.

هل يستفيق السبات والمولعون بالشعارات الإيرانية من دروس غزة القاسية؟ المفترض وفق أسوأ الاحتمالات: نعم.

● متظاهرون في كيب تاون في جنوب افريقيا يهتفون ضد العدوان الاسرائيلي على غزة (أ.ب)